(١)

السيد هبة الدين الشهرستاني

— ٢ —

وفاته

توفي — رحمه الله — بالكاظمية الخامس من شعبان سنة ١٣٤٠ هـ فكان يوما مشهوداً ونقل جثمانه الى النجف ودفن في الجهة الغربية من الصحن الشريف في الغرفة التي تقع عن يمين الخارج الى سوق العمارة وأرّخ وفاته الشيخ جمعه الحائري بقوله :

ونعى بها الروح الأمين مؤرخا [عدنان قوض بعدك الاسلام]

ورثاه فريق كبير من شعراء عصره .

أخباره

للمترجم له أخبار كثيرة لا تحصى تمثل الذكاء الحاد والفطنة السريعة والعلم والأدب الحي واليقظة الفكرية وتحرير الرأي . ومما سمعته عن حافظته ، أنه سئل يوماً كم تحفظ من الشعر . قال : احفظ من شعر بنات العرب البكر أربعة عشر ألف بيت . أما الثيبات فحدث ولا حرج وكان في مقتبل عمره . وذكر يوماً قائلا : أردت أن أقرأ علم الكلام على المرحوم عمي السيد علي فامتنع إلا بعد أن يجري علي الامتحان بتجزءة الفكر فامتحنني بذلك وهو أن يقرأ ويكتب ويسمع في آن واحد لثلاث نفر على أن لا يقع في الأمر أي اختلال ، فان صح ذلك فليس بمقدور أحد إلا من أوتي حظاً عظيما من المواهب . والحق ان المترجم له ممن أوتي ذلك .

ومن نوادره في الذكاء ، قال : كان أستاذي المرحوم الشيخ محمد طه نجف أقرأ له بعض كتب التدريس بعد أن ذهب بصره ، وقد ألف شرحا على كتاب التبصرة فكتبته له وصمم أن يقوم بطبعه ، ولما تم له أمر الطبع فاذا هو قد فقد الكتاب فتأثر الشيخ لضياع هذا الأثر النفيس ولذهاب تلك الجهود وزاد على ذلك إلحاح القوم عليه بنشره ، فلما شاهد المترجم له استياء استاذه قال له إني مستعد لاعادته من جديد وبعثه بالصورة الحرفية فكتبه وأعطاه لأستاذه فتوقف الشيخ عن طبعه إحتياطاً . ولم تمض أيام إلا وقد عثر الشيخ على صورة الأصل فطاب مقابلتها واذا بها لم تنقص ولم تزد حرفاً ، فعجب القوم لشدة ذكائه وقوة حافظته بمعرفة الألفاظ من يوم ان كتبها الى استاذه الى حين عزمه على الطبع وفي خلال ذلك سنين .

وكان لا يسمع شيئاً إلا حفظه حتى اللغة الأجنبية من مرة على الاكثر ومن مرتين نادراً كاللغة التركية والفارسية والهندية والانجليزية . وبهذا أصبحت أصدق ما ذكره التأريخ عن ذكاء أبي العلاء المعري ، وحماد عجرد . وأبي تمام في استحضارهما ثلاثين ألف أرجوزة للبنات البكر من العرب .

شعره

أما شعره فهو لم يجمع لأنه رحمه الله كان لا يرغب بذلك لعقيدته أولما يقول الناس : (الشعر يكمل الناقص وينقص الكامل) أو بدافع آخر لا نعلم به وعلى كلا التقديرين فلا نريد أن نناقش هذا الرأي .

ولو جمع شعره لزاد على مائة الف بيت لأنه قدس سره سريع النظم قوي البداهة ، ولم يتكلف في شعره بيت واحد ، في الوقت الذي يستطيع أن يبدل كلام يومه ويعرب في خلاله عن الخواطر والاحداث والاغراض التي تمر عليه بالشعر المقفى الموزون ، وكان يتحرى شعره بقدر الامكان ليعدمه إلا قسما أقره في حياته بخطه وهو الذي رثى به خطيبته شقيقة الشيخ خلف آل عصفور عندما خطبها وقد أبى أخوها جريا على عادات آبائه الذين لا يزوجون بناتهم إلا من أبناء عمهم . وقد أبت آن تتزوج إلا بالمترجم له ، ولما ماتت قال على إثر سماع نعيها :

كما يشتهي الواشون قد شقت العصا

(١) مستل من كتاب «أدب العراق في القرون المظلمة» لصاحب البيان .

واستمر يرثيها فبلغ ما قاله سبعة قصائد أسماها : « العباديات » وسبعة أخرى أسماها : « البصريات » وسبعة أخرى أسماها : « الكوفيات » وقد فقدت هذه ولم نعثر عليها ولا غيرنا عثر .

وكان في معظم شعره يصور لنا حياته وحيطه ومايثير على مشاعره من الصور الفكرية بنقد المجتمع ، وفي شعره - الذي قرأت والذي ستقرأ بعضه - خير صورة على معرفة روحه ومقاييس نفسه الكبيرة وانطلاقه الذهني .

وقد عانيت في سبيل جمع بعضه عناء شديداً وصرفت طاقة كبيرة حتى أوجدت له ديواناً أو ما يسمى بديوان يقع في ١٦٠ ص فرغت من جمعه يوم العاشر من ذي القعدة عام ١٣٦١ هـ في النجف وإليك بعض قوله وقد حصلت عليه بخطه الشريف :

وصل اليها بحجابها ... فان الامور باسبابها
ولا تيأسن لطول الصدود ... ولا تيأسن من قرع ابوابها
فان الغواني وإن صارمتك ... لابد من روح اعتابها
غلاظ العتاب وكم أعقبت ... وجادت ببغية منتابها
سقى الله ربعك صوب الحيا ... وجادتك ضربا بتكابها
علام صددت وأقلعت من ... تذكر ليلى واترابها
حسبت بلوغ المنى في الغرام ... سهلا على كل طلابها
ولو كنت أبصرت عين الرشاد ... دخلت المدينة من بابها

هي الريم قبلك كم قد سبت ... بهجرانها وبإعجابها
وكم قنصت بالعيون الاسود ... وغارت عليه لدى غابها
تريك من الغنج والامتناع ... وفرط التحفز من دابها
وتطمح بالنظر المستهام ... فيحيي اشتياقا ويضنى بها
ومن مكن البيض من قلبه ... فلا يأس من وقع نشابها
سل العاشقين وما جرعوا ... من الغانيات وأوصابها
وسل عنهم الأدمع المرسلات ... وجرع المرارة من صابها
وليل التمام وعد النجوم ... وهول الغرام بألبابها
فان كنت منهم وإلا فدع ... سبيل الهيام لأربابها
اليك فلست بكفوء لها ... ولا أنت من بعض خطابها
ولا تطمعن بنيل النجوم ... ووصل الدراري وتلبابها
ومن بذل النفس نال النفيس ... ونال به بعض ارغابها

وله وقد نظمها في السنة الثانية من هجرته للنجف بعث بها الى العلامة المرحوم السيد ناصر السيد عبد الصمد على إثر مروره على البصرة وعدم مشاهدته له فقال :

أعن تروحت عرف نجد ... أنجدت في الخد منك نجدا
واشتعل الرأس منك شيبا ... واضطرم القلب منك وقدا
ما نبض البرق من حماها ... إلا وسقت الحنين رعدا
مهلاً فما أنت من هواها ... أول عان بها تردا
قد وصلت قبلك البرايا ... فيها بحبل الدموع سهدا
فسل مضاضا وما عراه ... وجسم قيس وما تردى
هزت عليك القوام لدناً ... ود به لو يكون أودى
ضمياء ريا الشباب رودا ... يمنعها التيه ان تصدى
يا قلب ما أنت والغواني ... وأنت أهدى الأنام قصدا
مالك مها ذكرت ليلى ... قدحت بين الضلوع زندا
وكل ما مر ذو جمال ... تقول ماء ولا كصدى
ألم تجد في الورى سواها ... أم لم تجد من هواك بدا
في كوفة الجند كم غزال ... يصرع في ناظريه أسدا
يكاد ينثال ان تثنى ... وينفخ الصور ان تبدا
فلو تأملته وما قد ... جمع في شكله المفدى
رأيت ليلا سجا بهيما ... يلبس فيه النهار بردا
وذوب شهد خلال در ... وغصن بان بقل وردا
وسوق سحر بمقلتيه ... يباع فيه الفؤاد نقدا
يا قلب تدريك يوم بانوا ... ضللت قصد الطريق رمدا
عجت على الرسم وهو عاف ... تسأل ما لا يطيق ردا
أكان يجديك رسم دار ... ألحم فيها البلى وأسدى
مالك يا ليث آل فهر ... هدك يوم الفراق هدا
إلا تعوذت يوم وافى ... منه بأزكى الأنام جدا
بناصر الدين ابن حر ... قاد اليه الزمان عبدا
لو كنت مهما عراك امر ... عذت به معوداً ومبدي
صافح فيك الصفاح بيضا ... وسامر السمر فيك ملدا